
رسالة يحيى حقى التي أفلست بييرم

بقلم: يحيى حقى

كان احتفال البيت كله - الأب والأم والأولاد والصغار - بزجل جديد
لبيرم - بالعامية - لا يقل - وهم من عشاق الفصحى - عن احتفالهم
بقصيدة جديدة لشوقى .

وصول الصحيفة اليومية التي نشرت القصيدة بالتشكيل - فى
صفحتها الأولى « فلشعر شوقى دون بقية الشعراء مكان الصدارة مهما
تكن الحوادث والأخبار » .

أو المجلة الإسبوعية التي نشرت الزجل - بدون تشكيل طبعاً فى صفحة
داخلية « لم تكن الصحف اليومية تنشر بعدُ شيئاً بالعامية، تركتها
لبعض المجالات فعصر صلاح جامعين كان لا يزال فى عالم الغيب » .

يا لها من لحظة مضيئة فى حياتهم، إنهم تربوا على حب الكلمة،
سواء مكتوبة أو منطوقة، والإعجاب بقدرتها حين تنزل منزلها الحق
والمبتكر معاً، على إمتاع الذهن والروح معاً .

الأيدي تتخاطف انصحيفة أو المجلة، والحجة إما مقام الكبير أو دلال
الصغير، خطف يعرض الورق للتمرق، ولكنه خطف فى نطاق الود لا العداء،
فهو مصحوب بالضحك والمعاينة، إن كان هناك غضب عند الهزيمة فهو مصطنع
سريع الزوال، ينتهى بالمهادنة لا يكفيهم أن يقرأها كل منهم بعينه، ولنفسه

بنفسه، لا بد لهم بعد ذلك، أن يتحلقوا حول من هو بينهم أكثرهم تمكناً من اللغة، وإجادة للإلقاء، وهياماً بالشعر، إلى حد أن تأخذه الجلالة ليتلو النص عليهم ملتزماً نغمة الإنشاد وحركة الخطيب، لتشارك الأذن أيضاً فى المتعة.

والعجب أن لسان السامع منهم، حين كان ينطق سراً فى فمه بالكلمات، وهو يقرأ النص بعينه ولنفسه بنفسه، لم يكن يحس له بهجة التلاوة، والتي يحس بها الآن وهو ساكت داخل الفم حين يسمعها تتلى عليه إنشاداً.

كانوا على غير علم منهم، شهداء بأن الشعر فن يزكو بالإنشاد المنغم جهرًا، ثم لا يجد تمامه ولا كمال رسالته، إلا إذا كان إنشاده على جماعة المستمعين المحبين له.

فهو فى الأصل فن خطابى غنائى جماعى، إنه يتطلب أن ينشأ تيار عاطفى متجاوب بين فرد وجماعة، كما يحركهم ويطربهم هو بأنغامه المبتكرة ومعانيه الفذة، ويرفعهم من هوم الأرض إلى صفاء ذرى الفن والجمال.

يحركونه هم بعناقتهم له والاستجابة له؛ فيثبتون إيمانه بموهبته ورسالته، شرفها ونفعها وبهائها.

الوحى للشاعر حمى لا يتبرد منها، إلا إذا استحتم فى تيار عاطفى جماعى يتجاوب له، وهو الذى فجره.

ومع أن اللغة العامية كانت هى خبزهم اليومى، فإنهم كانوا أقدر على قراءة القصيدة بالفصحى وإجادة إنشادها منهم على قراءة الزجل بالعامية، دع عنك إنشاده، فحركات التشكيل والتنوين مساعدة على التنغيم والحرف فى الفصحى ثابت لا يتبدل، أما فى العامية فالحرف يتبدل، كالهزمة بدل القاف، والتاء بدل الشاء، والكلمات رغم صحة الوزن فى البيت تبدو منثورة فرادى كأنها غير مترابطة.

لذلك كان يرسخ في أذهانهم من القصيدة أبيات، على الأقل بيت واحد، يكون هو بيت القصيد، أما عن الزجل فلا يبقى منه شيء فكان بحثهم ومتعتهم وظفرهم في قصيدة شوقى هو النغم والمعنى المبتكر، أما في زجل بيرم فهو النكتة، خفة الدم واستجلاء سر عبقرية اللغة العامية، ظرفها ولطفها وبراعة كنياتها، وكانت بضاعتهم من النصوص العامية قليلة وقديمة.. كتاب يضم مجموعة أزجال الشيخ القوصى، وزجل قرأوه مرة وبقي شبحه ماثلاً في أذهانهم للأستاذ عبدالله النديم ألقاه 'رتجالاً' في سباق مع الأدبانية في طنطا، أيام الصعلكة.

ولكن كل هذا، كان له طعم الأكل البائت، ذوق العامة تحول، إنه سريع التحول، فلم يجدوا من يعبر عن حلالة العامة في عصرهم إلا في أزجال بيرم لا يدانيه شاعر آخر، البهم إلا إذا استثنوا حسين شفيق المصرى، فقد كان هو أيضاً محبوباً عندهم، ولكنهم لا يدرون لماذا قدموا بيرم عليه.

لعل السبب أن حسين كان يطلع عليهم مرة بزجل العامية ومرة بقصيدة بالفصحى، فهو موزع الإخلاص، لا يثبت على حب.

أما بيرم فقد كرس نفسه - كل نفسه - لحب واحد هو حب العامية، كان عندهم هو اللغة العامية في عصرهم، وكانت هذه اللغة هي بيرم.

كانوا شهداء على غير علم منهم، بأن الفن هو شديد الغيرة، لا يقبل غريباً.

ولا ينسى ابنهم الثالث إلى اليوم خيبة الأمل التي ضعفتها، مرة كانوا قد فرغوا من قراءة زجل بيرم جماعة، وانتشروا جميعاً بما فيه من ظرف وخفة دم.

فأخذه وطار به إلى صديق له، وقا له، جئتك بشيء عجب ينشرح له صدرك، استمع وفرد الصحيفة، وبدأت السمكة التي خرجت من بحرهما، تقرأ

وإذا لسانها يتلوثم وإذا النغمة متأبية عليه، هوى الرجل من شاق، ووصل إلى
أذن صاحبه مهزوماً مهمشاً فلم يتجاوب له .

ونظر إلى السمكة مندهشاً حائراً، من تفسير لهفتها وفرط العجب، وأخذ
صاحبنا يقلب الورق، ليبحث عن الظرف واللفظ، وخيل إليه أنهما سقطا
منه فى الطريق .

فكان شاهداً على غير علم منه، بأن أزجال بيرم لا تزكو، إلى إذا جاشت
لغته من قبل عواطف التلقين، إنها ضرب من الفن يحتاج إلى ألفة، ودربة قبل
أن يتم تذوقه .

وعاد إلى بيته مدلل الأذنين، وقد باخ تحفزه وتثلجت لهفته، وإن زاد
حبه لأهل بيته وحمده لربه أن نشأ بينهم .

وظل البيت وفيماً لبيرم باقياً على حبه والإخلاص له، يحزنهم أشد الحزن أن
يفلت منهم زجل له، وظلوا يتتبعون أخباره، ويرثون له وهو يتلطم فى غربته فى
فرنسا، ويضحكون معه وهو يروى لهم حكايات « سيد ومراته فى باريس » .

ما أشد اعتزازهم باحتفاظهم بأعداد مجلة « المسلة »، التى كان يصدرها
ويعجبون بفضلها بجرأته ووطنيته، وإن ضاق صدرهم قليلاً ببعض التلميحات
العامية الفجة من قوله: « البامية الملوكى والقرع السلطانى » تحية لمولد ولى
العهد، حقاً إن الخط الفاصل بين رقة الذوق وفجأته فى العامية، وثيق
كالصراط يوم الحشر، وكانت أعز أمنية لهم أن تكتحل عيونهم برؤية بيرم،
حبذا الجلوس إليه ولو مرة أما الاختلاط به ومصادفته فأمل بعيد المنال، لأن
فيهم بطبعهم عزوفاً عن الهجوم على الناس ورمى الجئت عليهم .

أما إذا جاءهم إنسان، فأهلاً وسهلاً يعوضون بالإغراق فى الحفاوة به والإسراع
إلى مصادفته، ما فاتهم من الروابط التى عجزوا هم عن توثيقها بجهدهم .

ولما جاءهم ذات يوم، خبر عمدة بيرم لمصر ونجاته من البوليس، كان هذا اليوم عندهم يوم عيد «وبيرم كلمة تركية معناها: العيد تنطق بفتح الباء وتسكين الياء».

يرجع مرجوعنا كبر الابن الثالث وبدأ يكتب كلاماً فى الصحف والمجلات، لم يعجب وإن كان من العجيب أنها قبلت نشره، فتمطع ذات يوم وكتب مقالاً يشيد فيه ببيرم وآزجاله، وعده أيضاً إماماً فى فن القصة القصيرة، إغاظه لمن يكتبونها بالفصحى، وظهر المقال فى مجلة، فتمطع رحزمها وأرسلها بالبريد المسجل إلى بيرم وهو مقيم فى باريس، بعد أن حصل على عنوانه من الصحيفة التى ينشر فيها مذكرات «سيد ومراته فى باريس».

كانه يريد أن يقول له: فى مصر إنسان يحبك ويعجب بك ويشيد بفنك، ويهمه أن يبلغك هذا احب وأنت فى غربتك.

الحقيقة أنه كان يريد أن يقول له قبل كل شىء: انظر إننى بدأت أكتب أصبحت أسير فى ركابك.

لم يحدث أن اقطع نداء من ناشئ لأستاذه ما قطعته هذه المجلة من مسافات عبر البر والبحر؛ ومع أنه كتب عنوانه تحت إمضائه فإنه لم يتلق رداً.

يقول وهو يغالط نفسه، إنه لا يطمع أن تصله كلمة شكر، كل الذى يرحوه سطر واحد يحمل من «بيرم» تحية، ليتمتد بين الاثنتين جسر ولو فى الهواء.

ومع ذلك فمن فرط حبة لبيرم لم يحزبه أنه أغضى عنه وأهمله، دون أن يدرى أن نفقة إرسال المجلة بالبريد المسجل كلفت المحب نصف مصروفه الشهرى.

ومرت شهور وربما أعوام ونسى حكاية المقال والمجلة.

وذات يوم ابتسم له الحظ، والتقى بيرم، فذكره بحكاية المقال والمجلة، وأول

كلام أعذره فقد كان لا يزال في ميعة الصبا، متلهفاً على شهادة بأدبه، تخرجه من الظلام إلى النور.

سأل بيرم هل وصلته المجلة؟ هل قرأ المقال؟ فإذا به لشدة دهشته، لا يجد من بيرم شكراً ولا حناناً، بل وجده قد أربد وجهه واغبر وفاجأه بقوله:
هو أنت؟ الله يخرب بيتك.

ثم روى له أنه كان في باريس يشكو من الجوع، ليس في جيبه من الفرنكات ما يكفي لأكله في يومه، إنه ينتظر على أحر من الجمر، أن يصله بالبريد أجر بعض مقالاته، فلما وصله إخطار من البريد أنه له عنده طرداً مسجلاً هرع إليه كالمجنون، إذن جاء الفرج وأيقن أن الأمر اختلط على البريد، فالذى وصله ليس طرداً مسجلاً، بل مظروفاً مسجلاً داخله شيك على بنك، وإلا فإن صديقاً في مصر قد حن عليه، فأرسل له بعض الملابس أو بعض الماكولات، ومنى نفسه بدفء أو شبع، فإذا به يفاجأ بالبريد يطالبه بدفع أرضية، لأنه كان قد غير عنوانه أكثر من مرة فلم يصله الإخطار إلا بعد تأخير.

وسأل عن المبلغ المطلوب، فإذا به يستنفد كل ما في جيبه لو دفعه لا يبقى فيه فلس واحد، والجوع باق يحدق فيه، فنسى نفسه وحصافته من شدة اللهفة، ودفع المبلغ، فإذا به يستلم طرداً ما كاد يفكه حتى وجد فيه مجلة قديمة فوق البيعة، رماها على الأرض من فوره، وهو يلعن ويسب من أرسلها له وتسبب في دفعه للغرامة، وهي كل ما يملك.

ثم أنهى روايته وهو يقول: تعلم الآن أنني لم أقرأ مقال حضرتك يا سيدى.
وكانت قد ارتسمت في ذهنه لبيرم - غيباً - صورة رجل ظريف، بحبوح، ابن نكتة، سريع الإقبال على جلسه ويهش له، رجل يكره الغم والنكد، ناج من الأحقاد، لا يحب الشكوى، سعيد بالمكانة التي بلغها، فإذا به لشدة

دهشته، يجد بيرم حين التقاه على نقيض هذا كله .

وجده إنساناً يحب العزلة، من الصنف الذى يكره أن تلمس يد غير يده ذراعه أو كتفه، يطيب له أن يجلس وحده فى مقهى بلدى فى حى شعبى، منقبضاً مكوراً على نفسه والتكور أيضاً صفة جسده ورسم وجهه، ملامحه تكاد تنطق بأنه يتكتم زمجرة ترتكض فى أحشائه، خيل إليه أنه يحز على أسنانه .

ولما جلس إليه، أحس أنه لا ينتظر منه إلا الحديث المقتضب كلمة ورد غطاها، ليس له صبر ولا مرارة على اللت والعجن .

فإذا تحدث هو لم يكن حديثه إلا عن شكوى من مطربة أكلت حقه، وعن الإذاعة التى أهملت أوبريتاً له، فى صوته نغمة الشكوى من ظلم واقع عليه، وأن حقه مهضوم .

لا يستطيع أن يجزم أن هذا هو طبع بيرم الغالب عليه فى جميع حالاته، مع جميع الناس، ولكنه يستطيع أن يشهد أنه هكذا وجده فى المرات القليلة التى جلس فيها إليه .

ثم صار بعد ذلك يتحاشى اقتحام خلوته لأنه لم يفلح - كما كان يتمنى - فى أن يمد جسراً بينه وبينه، هذه المرة على الأرض، لا عبر السر والبحر ليجد فى نهايته بيرم الذى تغنى بأزجاله مراراً قارئاً وسامعاً، فكان يسكر طرباً للطفه وخفة دمه .

وظل يتتبعه من بُعد، ثم بدأ يضع يده على قلبه خشية أن يغتال تحول ذوق العامية السريع، أمام العامية فى عصره، فيسبقه الزمن، ومصطحات جديدة توافق عصرًا جديدًا يقدم بخيِّله ورجاله وسلطانه وهيمانه .

١٩٦٨